دراسة وتحليل

الجواهري شاعر العراق

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ٣ —

أما الأوضاع الاجتماعية في الشرق العربي فقد شغلت الشاعر شغلا عنيفا حتى أتعبته ، فقد دار بعينيه فيما حوله فوجد العطب يدب في كل مكان ، والظلم يخنق الرقاب بقيد حديدي ثقيل ، وقد تعددت مظاهر الفساد ، فلم تقتصر على شكل واحد ، واختلفت أماكن الداء فلم تخيم في بقعة واحدة ، ولكنها سلاسل ممتدة مشدودة ، لاتجد الرقاب والأيدي والأرجل منها بعض الفكاك ، والجواهري لايفرد النواحي الاجتماعية بقصائد خاصة تكشف عن مساوئها الخاطئة ، بل يقرن الشعب السياسي بالفوضى الاجتماعية في قصائده الملتهبة ، فلولا الانحطاط الاجتماعي الشائن في الشعوب المحتلة ، ماوجد المستعمرون وأذنابهم ماء عكرا للصيد ، ولولا فساد الساسة وأنانية القادة مارزحت الدول تحت كابوس ثقيل من الجهل والمرض والحرمان ! وكان شاعر الفرات يتأوه تأوها مريرا لما تقابل به صيحاته من دس وانهام ، فقد علم المستعمر أذنابه أن يقاوموا حركات الإصلاح في كل شعب ، فكل ناصح مخلص ثائر مخرب ، وكل مدافع عن دينه ووطنه هدام ثوري يدين بالمبادئ الخطيرة المتطرفة ، حتى التبس الأمر على السواد ، ودفعهم الجهل إلى التردد في قبول النصائح وإحلالها محلها اللائق من القبول والانصياع .

فالوعي بغي والتحرر سبة والهمس جرم والكلام حرام

ومدافع عما يدين مخرب ومطالب بحقوقه هدام

وقد كانت الشيوعية — ولازالت — أقرب تهمة وأيسرها على المحتلين وأشياعهم ، فما يكاد أحد في الشرق العربي ينطق بكلمة في الإصلاح ، حتى يتهم اتهاما خطيرا بما لايقصد إليه بحال ، واضطر الساسة جريا وراء مآربهم الذاتية أن يربطوا عجلتهم الضعيفة الواهية ، بعجلة إنجلترا القوية السريعة ، ووقف الدب الروسي رمزا للخوف والهلع والإزعاج ، كأن الأسد البريطاني المتوحش لايؤذي أحدا من الضعفاء مع أن ضحاياه في الشرق من تسعين عاما قد ملأت المقابر بالأشلاء ، والطرق بالدماء . ولايزال المغرضون يفيئون إلى حنانه الكاذب وعطفه المزعوم .

شدوا بذيل غراب أمة ظلمت

تطير إن طار ، أو تهوى إذا وقعا

وخوفوها بدب سوف يأكلها

في حين تسعين عاما تألف السبعا

وضيقوا أفق الدنيا بأعينها

بما استجدوه من بغي وما ابتدعا

وذاك معناه أن يبيعوا كرامتكم بيع العبيد بتشريع لكم شرعا

ورغم هذه التهم الكاذبة شق الشاعر طريق الإصلاح في صلابة وإيمان ، وقد حارب ببراعة المكافح في جبهات متعددة ، وحمل المشعل في يده يطارد الظلام في كل مكان ساخرا بالعواصف ، متحديا جميع الصعاب !

ففي جبهة أولى يقف أمام الفقر فيحلل أسبابه ، ويكشف عن علله ، ويرمي بنظره في هذه الكتل المتراصة في الشوارع وقد كساها الجوع لباسا أصفر شاحبا هزيلا تمد الأيدي السائلة وتتبع الفتات في القمامات كما تتبعه الحيوانات ، وتقف أمام القصور الشامخة منحنية ذليلة تتطلب الكفاف مما يرمى إلى الكلاب المدللة !! وقد مسح الفقر من نفوسها معاني الكرامة والعزة والإباء ، وفي داخل القصور الممردة نفوس تبترد بالخمور ، وتتجمل بالحلي والعطور ، وأخونة تمتد بالطيبات من المطاعم ، وليالي حمراء مرنة بالقصف والرقص ، مغردة بألحان الفتيان ، مضيئة بوجوه الكواكب الحسان ! فشتان بين أولئك وهؤلاء

عجبت لخلق في المغارم رازح يقدم ما تجني يداه لغانم

وأنكأ من هذا التفاني قرحة فباوة مخدوم وفطنة خادم

لو اطلعت عيناك أبصرت مأتما أقيم على الأحياء قبل المآتم

إذا أقبل الشيخ المطاع وخلفه
من الزارعين الأرض مثل السوائم
قياما على أعتابه يعطرونها خنوعا وذلا بالشفاه اللواثم
حنايا من الأكداح تلق ظلالها
على مثل جب باهت النور قاتم
أمبتردات بالخور تثاجت وبالماء يغلى بالعطور الفواعم
ومفترشات فضلة فى زرائب يوسدها ما حولها من ركائم
أمن كدح آلاف تفيض نعاسة يتمتع فرد بالنعيم اللازم
سياسة إقفار ، وتجويع أمة وتسليط أفراد جفاة فواشم

وفى جهة ثانية يحارب الجهل فيعلن أنه أس المصائب وشر لمحن ، فلولاه ماتهش الجوع نهشا فى النفوس الكادحة ، ولولاه ما حيكت الدسائس والمؤامرات للشعوب فى ظل من الخداع والابتسام ، ولولاه ما وطد المستعمر قلاعه وأقام بناءه الراسخ ، ولولاه ماأقفلت المصانع والمتاجر وأصبحت الوظيفة الحكومية مناط الآمال ومبعث الرجاء ، ولولاه ماقيدت الجموع اللاغية حفاة عراة لراكب ، ولولاه ماحاز أشباه الجهلة من المتعلمين أسمى المناصب ، وأعظم الألقاب ، ولولاه ما كانت الأفواه الناطقة ، واحتجزت الألسنة الصارخة عن كشف المثالب والهنات !! وأخيراً لولاه ماتدهورت الشعوب العربية إلى ما انحدرت إليه من ذلة وهوان فزا الجهل أرض الرافدين فخلها
كثير المرايا مستجاش الكتائب
طليعة جيش للمصائب هددت كرامته ، والجهل أم المصائب
وما خير شعب لست تعثر بينه على قارئ من كل ألف وكاتب
تمشى بجر الفقر ردفا وراءه
وأنعس بمصحوب وأنعس بصاحب
فكان لزاما أن تحوز عصابة تربت يزى العلم أعلى الرواتب
وكان لزاما أن تتم سيادة عليه لأبناء الذوات الأطايب
وكان لزاما أن تعطل صنعة
وأن يصبح التوظيف أعلى المكاسب
وكان لزاما أن تقاد جموعه حفاة عراة مهطعين لراكب
وأوجع ما يصمى الغيور مقاصر
أطلت على محجورة فى الزرائب
يبين على الحيطان شرخ نعيمها وتغمرها اللذات من كل جانب
وتحيا ليالى الرقص فيها خليعة
تكشف عن سوق الحسان الكواعب
وتلك من الإدقاع تفسد الثرى يلاعب جنبيها دبيب العقارب

والجواهرى قد حارب الجهل كما تقدم محاربة عنيفة ، يحمل سوطه فى يده ويهوى به على النشء المثقف من المتعلمين ! فيعجب القارئ بادئ ذى بدء لهذا الثائر الذى لا يرضى عن أحد ، ولكنه ينصت للشاعر فيجده صاحب حق فى جميع أقواله ، فلا تناقض بين ما يقوله فى شىء ، إذ أن النشء المثقف فى العراق وغيرها لم يحققوا الآمال المعقودة عليهم فقد رأوا كثيرا من الخرافات فلم يجلوا ظلامها الحالك عن النفوس ، وشهدوا الأوضاع الظالمة — فى عالم السياسة والاجتماع — فلم يحاولوا أن يقفوا أمامها وقوفا ينذرها بالتصدع والانهيار ، بل ربما ساروا فى ركابها سيرا مشينا ، وقذفهم التيار إلى لججها الزاخرة ، فهزوا مع القواة وأساموا سروح اللهو حيث أساموه ، والشاعر يرجع ذلك كله إلى التربية نشأ عليها التلميذ فى مدرسته ، فقد وجد من الأساتذة من لا ينير طريقه ويكشف ليله ، ومن المناهج قشورا بالية يعنى وضعها المستعمر ، فليست تقوم خلقا أو تحيى كرامة ، بل تخلق فى مائعا يعنى بهندامه كملبسه ، ويتشبه بالنساء فى عطوره وزينته ، ويمشى متخاذلا مدلا تغمره الأحاسيس الناعمة . وتقوده العواطف الرقيقة وقد يتنامى رجولته فيلجأ إلى التحدث والتبذل والعربدة ، فخطرات النسيم تجرحه ، ولمس الحرير يكلم راحته ، وقد مات شعوره فلم يفكر فى ضحايا قومه ، وصرعى معشره ، كأنه ليس منهم وليسوا منه ! فيصير هؤلاء المأسيخ المشرهون خلقا وعقلا معقد آمال ومبعث حياة ، أم يسيرون بأممهم إلى الوراء مئات الأميال ، ويهوون بها إلى الحضيض السحيق فى أغوار الظلام !

هلم إلى النشء المثقف واكشفوا
حجابا يغطى نفسه وقناعا
تروا كل مفتول الذراعين ناهدا قصيرا إذا جد النضال ذراعا
وكل أنيق الثوب شد رباطه إلى عنق يمشى العيون لماعا
يموج إذا مس الهجير رداءه كما انحل شمع بالصلاء فماعا

تراه خلى البال أن راح داهنا وأن قد ذكا منه الأريج وضاعا
وليس عليه ما تكامل زيه إذا عرى الخلق الكثير وجاعا
وأن راح سوط الذل يلهب أمة كراهية يستاقها وطواعا
ولم تشجه رأيا وسمعا قوارع يسوء عيانا وقعها وسماعا
ورب رءوس برزة عششت بها خرافات جهل فاشتكين صداعا
بهـا نومتنا الأمهات تخوفا وما أيقظتنا الحادثات تباعا

وكما حنق الجواهرى على المثقفين من بنى وطنه ، حنق على بعض رجال الدين من ذوى العمائم المعتدة ، والمذبات الطويلة ، إذ أن رجل الدين الصادق فى رأيه هو الذى يغير المنكر بيده ولسانه وقلبه ، فيكون ثائرا إن دعا الأمر للثورة ، وسائلا حين يتحتم السيال ، وقد تزيى بلباس الدين أقوام من مشايخ الطرق وأصحاب الأذكار والأوراد ، وهم لا يفهمون قليلا عن روح الشريعة ولباب الإسلام ، وصادفوا من العامة ثقة غالية ومنزلة رفيعة فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وابتدعوا البدع ابتداعا ، وجسموا الأوهام تجسيما يدعو إلى الذعر والهلع ، ومسخوا روح الدين من النفوس ، وساعدوا الطغاة والآثمين ، فكانوا مطاياهم السريعة فى التنويم والتخدير ، وزاد الكارثة هولا أن هؤلاء الأدعياء لا يتورعون عن الآثام فى حقير أو جليل ، فهم يقترفون الموبقات ، وينتهكون المحارم ! ويتصيدون الرشى والأموال من سبل مريبة ، حتى فاح النتن الآسن منهم على الناس ، ولابد لهذه الشرذمة من نقد عاصف يكشف زيفها الخاتل ، ويطمس بريقها الأخاذ ، فاندفع الجواهرى يندد بهم فى قصائده الثائرة كأن يقول

تحكم باسم الدين كل مذمم ومرتكب حفت به الشبهات
وما الدين إلا آلة يشهرونها إلى غرض يقضونه وأداة
وخلفهمو الأسباط تترى ومنهمو لصوص ومنهم لاطة وزناة
وما كان هذا الدين لولا ادعاؤهم لتمتاز فى أحكامه الطبقات
أتعجبى ملايين لفرد وحوله ألوف عليهم حلت الصدقات
وأعجب منها أنهم يذكرونها عليهم وهم لو ينصفون جباة

والشاعر لا يترك سبيلا للتنديد بهم إلا سلكه وأوغل فيه ، ولو لم تسكن مناسبة الكلام قوية ملحة ، فعندما احتفلت البلاد بالذكرى الألفية لأبى العلاء المعرى ، وذهب الشاعر إلى دمشق ليلقى قصيدته باسم العراق ، لم يشأ أن يقصر الحديث على روائع الفيلسوف وآثاره ، بل حلل آراءه الاجتماعية تحليلا شعريا يمس اللباب الخالص ، ويشع مومضا بمختلف الإيحاء والإلماع ، وكأن شاعر الفرات يجد الراحة الهانئة فى التنفيس عن مشاعره المتزجية بمشاعر أبى العلاء ، والناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، فما أغضب المعرى من أوضاعهم الشائنة قد أغضب الجواهرى بعد ألف عام !! وكان لأدعياء الدين نصيبهم الوافر من النقد والتجريح ، فحفلت قصيدة الجواهرى بفوارس لاذعة تسيل دماءهم وتحطم كبرياءهم ، وتوغر صدورهم ، وما عليه وقد وافق أبا العلاء فى رأيه ، وجرى معه فى سنن واحد حين أهدى إلى روحه هذه الأبيات

وهؤلاء الدعاة العاكفون على
أوهامهم صنما يهدونه القربا
الخابطون حياة الناس قد مسخوا
ماسن شرع وما بالفطرة اكتسبا
والقاتلون عثانينا مهرأة
ساءت لمحتطب مرعى ومحتطبا
والملصقون بعرش الله مانسجت
أطماعهم بدع الأهواء والريبا
والحاكمون بما توحى مطامعهم
مؤولين عليها الجد واللعبا
على الجلود من التدليس مدرعة
وفى العيون بريق يخطف الذهبا
أوسمتهم قارصات النقد لاذعة
وقلت فيهم مقالا سادقا عجبا
صاح الغراب وصاح الشيخ فالتبست
مسالك الأمر أى منهما لعبا

يتبع

محمد رجب البيومى